

الحسن المأساوي في أدب أبي حيان التوحيدي

الدكتور عبد الفتاح نافع

أستاذ مساعد في كلية الآداب

بجامعة اليرموك

أربد - الأردن

عاش التوحيدي في القرن الرابع الهجري . وشهد فترة الانحطاط السياسي والاقتصادي والاجتماعي والخلقي ، وما تبع ذلك من فقر واستبداد وخوف وقهر واضطهاد . فكان شاهداً على مأساة العصر . فسرت في نفسه روح الكآبة وتعمق فيها الشعور بالأسى ، وهو يـرى الفقر المدقع وطغيان المادة وسقوط المثاليات واستئراء النفاق . فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الانسان المتطلع للمثال الباحث عن الحقيقة .

وقد ترك فقره الشديد أثره على رؤيته للحياة والأحياء ، وعمق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة . وحاول عن طريق طموحه العظيم وقدراته الفكرية أن يتغلب على الاحساس بمرارة الفقر . فعاش أزمة المادة وعاش أزمة الفكر . وسعى جاهداً للوصول الى بلاط الكبراء فأخفق في أن يجد المكانة التي تليق به وبأدبه . وشاهد اغطهاد العلماء والأدباء والمفكرين من قبل ذوي النفوذ ، فعمق هذا شعوره بالمأساة ، وزاد هذا الشعور حدة ما رآه من نفاق أدبي وتزلف وترد بالأدب لارضاء فئة معينة . وعمقت هذه الأمور أزمته النفسية ، فساءت نظرته الى عصره وإلى أناسه . وانكفأ على نفسه ليصـور خلجات الذات الانسانية وأخيلتها وتطلعاتها دون خوف أو تردد . وما نسبت أزمته النفسية أن جعلته غريباً في كل شيء ، في أدبه وخلق ، في تدينه وتصوفه ، في فلسفته وفنه . وانقطعت الصلة بينه وبين الوجود ، وبينه وبين الأحياء ، فانخلع عن عصره ، ليعيش في ذاته يكثف عن معاناتها وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي . فصور مأساة الفرد في نفسه وفي مجتمعه ، وصور الشقاء الانساني في أمور الحياة وشؤون الفكر على اختلاف العصور .

شهد القرن الرابع - عصر التوحيدي -

تمزق الدولة العباسية الى دويلات مستقلة أو شبه مستقلة ، وانحسار سلطة الخليفة العباسي . وتبع تفكك عرى الخلافة ضعف في السلطة ، فانتشرت الفوضى ، وذاعت الفتنة ، وعم الاضطراب في أرجاء الدولة ، واستأثر العنصر الفارسي بالحكم ، فصمغ الدولـة بصيغته ، وزحزح العرب عن مكانهم ونافسهم في لغتهم شعراً وأدباً وتآليفاً . وتبع الانحطاط السياسي فوضى اقتصادية

واجتماعية ، فشاع الخوف وانتشر الظلم وفقد الأمن والاستقرار (١) . وحدث تباعد هائل بين الطبقات نتيجة سوء توزيع الثروة العامة ، فغني فريق ، وحرمت الغالبية - بمن فيهم المفكرون - من القوة الضرورية ، فظهر العيارون الذين دبوا الفزع في كل مكان ، وخرقوا هيبة السلطان ، وارقوا الدماء ، ونهبوا ما استطاعوا ان ينهبوا (٢) ، وكان لتغشي ظاهرة الاقطاع وكثرة الضرائب والمصادرات أثره ، فساءت

أحوال الناس وأصبحت الأمة كما يقول التوحيدي " في عيش نكد وشؤم شامل وبلاء محيط وغلاء متمل، ودرهم عزيز، ومكسب دنس - وخوف غالب " (٣). وتبع هذا انحطاط في القيم وفساد في سوء نظرة الناس للدين، فأصبح وقد " أخلق لبوسه وأوحش مأنوسه، واقتلع مغروسه، وصار المنكسر معروفا والمعروف منكرا " (٤) وبعد أن " كان الناس يتقلبون في بساط الشمس (أعنى الدين) فغريت عنهم، (أعنى الجهل وقللة الحياء) فلا جرم اعزل الداء، وأشكل الدواء، وغلبت الحيرة، وفقد المرشد، وقل المسترشد " (٥).

ومن المغارقات أن هذا الانحطاط السياسي والخلقي والاجتماعي والاقتصادي رافقه رقي عقلي عظيم، فالقرن الرابع أغنى القرون معرفة وثقافة، وأكثرها علماء وأدباء وفلاسفة، وأغزرها إنتاجا وأعظمها ابتكارا. فقد ظهرت فيه المعاجم اللغوية والكتب المؤرخة والموسوعات العلمية الكبرى، ونضجت الفلسفة، وشهد العصر مرحلة الصراع الفكري بين مختلف المذاهب والنحل.

ويبدو أن الاستبداد والقهر والخوف جعلت كثيرا من العلماء والمفكرين والأدباء يحجمون عن المشاركة في الحياة العامة، ويتعبدون بأنفسهم عن السلطان خوفا من العواقب واذلال النفوس، فانكفؤوا على نفوسهم، يبحثون، وينقبون، ويفكرون، ويشغلون أنفسهم بهذه المناقشات العلمية والمحاورات الفكرية، فيشبعون أرواحهم بعد أن خويت معدنهم (٦).

وإذا كان الخوف قد أوجد مثل هذا المنحى الإيجابي، فقد كان له منحى سلبي خطير. فالأدباء الذين تجمعوا في قصور الخلفاء والأمراء، عاشوا في جو من الدسائس والمؤامرات والتناحر والتملق، فبعدوا عن المثالية، وسقطوا في هوة النفاق

طمعا في الوصول إلى الشهرة. فغلب التكلف على أدبهم، وفقدت العاطفة حرارتها، وأصبح التسول مهنة تحترف. ورافق هذا شك في العلماء وسلامة آرائهم وبعدهم عن التحيز " فلم يبق من يرضى هديسه أو يقتبس علمه، أو يخطب عرفه، أو يقتفى جوده، أو يقدر زنده، أو يستفاد لفظه، أو يتوخى معانه، أو يعرف حده، أو يعرض أدب من الآداب عليه " (٧).

وكان التوحيدي شاهدا على مأساة العصر، فتأثر بروح العصر ومجرياتهم، فسرت فيه روح الكآبة، وتعمق فيه الشعور بالأسى، وهو يرى الفقر المدقع، وطفيلان المادة، وتحطم المثاليات، واستشراء النفاق وكان أكثر الأدباء فهما لزمانه وأناسه، وأكثرهم إدراكا لمفهوم الواقع والمثالي. فانطلق في أدبه يعبر عن مأساة الإنسان المتطلع للمثالي المنشود، الباحث عن الحقيقة، المشدود إلى الواقع المرفوض. فعاش عذاب المجموع، وعاش عذاب الفرد، فجاء أدبه صورة للشقاء الإنساني في الحياة المادية وفي حياة الفكر.

١ - التوحيدي بين أزمة المادة وطموح الفكر. لم يكتب للتوحيدي أن يكون على جانب من الشراء يغنيه عن ذل السؤال، أو أن يكون من أسرة عريقة ذات انتماء تأخذ بيده، فتحول بينه وبين السقوط في هوة الفقر المدقع. أشقاء الفقر وأضناه، حتى لم يعد يرى إلا " الغرباء والمجتدين والأدنياء الأردباء " (٨) وكأنه وجد في هؤلاء بديلا عن الثروة وشرف الانتماء.

عاش التوحيدي في عصر مادي مضطرب، حيث " بارت البضائع وغارت البدائع، وكسد سوق العلم، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم " (٩). ولم تقم مهنة الوراقة التي مارسها بسداد رmqه لضوالة موردها وقللة جدواها (١٠) فلم يكن

يظفر بقوته الضروري، وغذا" يأكل الكسيرة اليابسة، والبقيلة الذاوية، ويلبس القميص المرقع، ويتأدم الخبز والزيتون، وينفلق أربعين درهما في الشهر" (١١). ولا يفوز بالبلغة من العيش " إلا ببيع الدين، وأخلاق المروءة، وارقة ماء الوجه، وكد البدن، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرقة، ومضّ الحرمان والصبر على ألوان وألوان" (١٢). ورسخت الفاقة في نفسه شعورا بالمرارة والقرف، وتمنى الموت (١٣)، ذلك أنها اضطرت أن يروض نفسه على التضرع، وأن يفرق في التملق (١٤). كما ترك الفقر أثرا عميقا في نفسيته وفي رؤيته للحياة والأحياء، فعمق لديه الاحساس بالتشاؤم وتفاهة الحياة، وجعله ينتحل القناعة رياضية، ويدرع الصبر، ويتخذ الانقباض صناعة (١٥). وكان لهذا كله مردود على الأدب، ففاضت نفسه بنقائص المجتمع والأفراد، وسجل مآسي العصر في أخلاق ملوكه ووزرائه وكتابه، كما صور حالة البؤس والهوان التي انحدر إليها الناس ومنهم المفكرون وأهل الأدب. ولعل كثرة الأبواب التي عقدها عن المطعمين والطاعمين، وأحاديثه فيها عن ألم الجوع والحرمان وضنك المعيشة، وأثر ذلك في النفس البشرية، في تصرفاتها واتجاهاتها، دلالة واضحة على أن الرجل سخر قلبه للحديث عن هذا الجانب المأساوي تسخيرا رائعا. فنغذ إلى دوائر النفوس، وتحدث عن انعكاسات الجوانب الاقتصادية على اتجاهات الإنسان ونوازه (١٦).

وإذا كان التوحيدي قد أكثر من التشكي والتظلم وادعاء الحرف والسقم والعجز في شأنا كتبه، فليس ذلك من قبيل الوسواس (١٧) فالظاهرة كانت تملأ عليه كيانه وحسه، وتشغل القطاع الأعظم من الناس، وتمثّل سمة رئيسة من سمات العصر. فإذا جاء في أدبه ما يشعر بالاستجداء وهوان الشخصية، فإنما هو في الحقيقة يعكس ما كان يجده

العلماء والأدباء، بل وعامة الناس من معاناة في تحصيل لقمة العيش. ويقدم صورة حية للمفارقات العجيبة في الحياة المعيشية، حيث " أناس يرفلون في الدمقر والديباج، وطبقة لاتكاد تجد مايسنتر عورتها، طبقة تعيش في بذخ وترف، وطبقة لاتكاد تجد ما يمسك رملها، ويقبض أودها" (١٨) وبحيث يمكن أن نؤكد أنه لم يكتب في النثر العربي ما هو أقنوى وأشد تعبيرا عن شخصية صاحبه، أو تصوير شخصيات الناس مما كتبه أبو حيان (١٩).

وإذا كان الفقر قد حال بين التوحيدي رفاهة العيش، فقد ساهم في طموحه الفكري واتجاهه نحو مناهل العلم والأدب. وإذا كانت حرفة الوراقة لم تشبع نهمه المادي، فقد كان لها فضل كبير في إثراء نهمه الفكري. فقد أوصلته بعالم الفكر والأدب، فاتصل بأهمات الكتب، ينسخها، ويدرسها، ويلخصها، ويقتبس منها، كما وملت به علماء وفلاسفة كبار تعاطوا هذه الحرفة، من أمثال السيرافي ويحيى بن ندي. ووصلته بالخاصة من وزراء العصر وأصحاب السلطان، لاسيما الكتاب والأدباء منهم. هذا إلى جانب أنها أيقظت فيه الحاجة إلى دراسة منظمة على أيدي أساتذة عظام، استقبطوا معارف عصرهم، وأغنوا التراث العربي بنتاج قرائحهم (٢٠)، فمنهم أبو حامد المرورودي، وكان اماما لا يشق له غبار في فقه الشافعية (٢١) ومحمد بن علي إسماعيل القفال أوجد عصره في الفقه والكلام، وحديث واللغة والأدب (٢٢) والمعاذ بن زكريا النهرواني القاضي، وكان اماما في النحو واللغة وأصناف الأدب متفننا في جميع العلوم (٢٣)، وأبو بكر الشافعي حيث درس عليه الفقه والحديث والقرآن والتصوف واللغة، وأبو سعيد السيرافي أعلم الناس بنحو البصريين (٢٤) وهو في نظر أبي حيان شيخ الشيوخ وامام الأمة في النحو والفقه واللغة

والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة (٢٥) .

والرمانى علي بن عيسى، أحد متكلمي المعتزلة وكان اماما في العربية والأدب، وأبو سليمان السجستاني أدق الأساتذة نظرا وأصفاهم فكرا (٢٦) وكان عالما في المنطق والفلسفة نقل عنه التوحيدي آراء أرسطو وأفلاطون في المقابسات، ويحيى بن عدى المنطقي أوجد دهره في صناعته (٢٧) حيث قرأ التوحيدي عليه كتب اليونان وحضر مجالسه ونعته بالاستاذية (٢٨) .

رخان لهذا التنوع في شيوخه واتجاهاتهم الفكرية أثره العظيم في فكر التوحيدي وأدبه، فجعل منه عالما موسوعيا "متغننا في جميع العلوم، من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام" (٢٩) كما جعله بارعا في الفلسفة، فمزج بينها وبين الأدب فكان "فيلسوف الأدباء" وأديب الفلاسفة، ومحقق الكلام ومتكلم المحققين، فرد الدنيا الذي لانظير له ذكاء، رطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم في كل فن حفظه، واسع الدراسة والرواية (٣٠) وأضحت ثقافته تمثل أرقى ما وصلت إليه ثقافة أديب أو دقة باحث في عصره، ورزقته سعة اطلاعه قدرة عظيمة على التوغل في أعماق النفس البشرية، فتحدث عن أخلاقيات الانسان ومشاعره وشجونه وهو أجسمه، وتناول المعاني الانسانية بمفارقاتها في تحليل عجيب وسير الذات الانسانية لانكاد نجد له نظيرا في النثر العربي (٣١) .

واذا كانت ثقافته الواسعة قد خلقت منه شخصية فريدة في الأدب والبحث والتأليف (٣٢)، فقد رسخت أيضا في نفسه لونا من الاعتداد والتباهي بعلمه، وسما به طموحه، فلم يستطع في أحيان كثيرة أن يكتف شعوره بالتفوق ورغبته في أن يتبوأ المكانة اللائقة به (٣٣) . ولعله

كان يرد بقوة على هؤلاء الذين بخسوه حقه، وشغافوا عن فضله وتجاهلوه "ولم أر أحدا من أهل العلم ذكره في كتاب، ولا دمجه في ضمن خطاب، وهذا من العجب العجيب" (٣٤) .

كان التوحيدي يشعر بمرارة أنه لا يقل عن ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي إسحق الصابي وابن سعدان وعبد العزيز بن يوسف . وقد نال هؤلاء حظوة في الدنيا، واستوزر بعضهم، ولم يبلغ هو منزلة كاتب في ديوان إنشاء، وكان طموحه العظيم يدفعه الى التنقل والارتحال بمناحي المملكة الاسلامية سعيا وراء حظه وعيشه وأمله . ودفعه طموحه الى الاتصال بالوزراء - ولأسيما العلماء والأدباء منهم - فاتصل بالوزير المهلبى وابن العميد وابن عباد وابن سعدان . . . ويخطئ من يظن أن اتصاله كان لغرض مادي بحت، وأنه كان يتمرغ على أعتاب الوزراء وذوي النفوذ مستجديا ذليلا (٣٥) فالمال لم يكن مطلبه الوحيد، بل كان الى جانبه سعي دائم الى الواجهة والتقدير وعلاء المكانة وحسن المكافأة، وكان كلما ينس من تحقيق هذه الأمور غادر مكان اقامته ذامنا ساخطا (٣٦) .

قصد المهلبى، فلم يكرم لديه، ولم يطق المهلبى طريقته في الجدل، واتهم لديه بخبث الاعتقاد والقدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وخشي على نفسه فتركه (٣٧) . وارتحل الى ابن العميد آملا أن يجد لديه ما يرد غائلة الفقر ويخفف وطأة الحاجة، ويشبع طموحه العلمي - وقد كان يقدر العلماء (٣٨) وعرف بأعزازهم للأدباء (٣٩) - وكان أوجد العصر في الكتابة، وكان يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ الرئيس، ويضرب به المثل في البلاغة (٤٠) فلق له

لديه امتهانا واحتقارا، ربما بسبب

هيئته ومظهره (٤١) وربما لعدم قدرته على مخالطة الكبراء ومحاورة الوزراء (٤٢) وربما لأنه ساءه ما عليه التوحيدي من اعتداد بنفسه واستطالة على غيره .

وقد صاحب بن عبّاد الوزير العالم الأديب" وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء . وحضرته محط رحالهم ، وموسم فزلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة اليهم " (٤٣) فعامله بطلافة واحتقار واستكثر عليه أن يقف احتراماً لـه " أقعد فالوراقون أخس أن يقوموا لنا (٤٤) وعهد اليه بنفس حرفته - حرفة الشوم ، الوراقة ، فأمره بنسخ ثلاثين مجلدة " وأي انسان ينسخ هذا القدر وهو يرجو بعده أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه بيده " (٤٥) وبقي في خدمته ثلاث سنوات يكتب وينسخ دون أن يعطيه درهما واحداً أو ما قيمته درهم ، مما أحفظ التوحيدي عليه فلجأ الى ثلبه (٤٦) .

واتصل بالوزير ابن سعدان وخدمه وكتب له ، فماتل في منحه حقوقه ، وظل طيلة اقامته لديه مهردا بالطررد والحرمان (٤٧) .

لقد كانت ثقافته وعلمه وأدبه وفكره تغذي طموحه العظيم ، وتقف سدا منيعا بينه وبين ادلال نفسه واستخذائها في هلاط وزير أو أمير ، وكان فقره المدقع وشغفه بالوصول ، يدفعانه باستمرار الى التشبث بالأمل في قوة واصرار والحاح ، بلغ حد الاسفاف والتوسل (٤٨) . وعندما نال جائزة الحرمان ، وتحطمت الصورة المثال أمام عينيه انطلق يعبر عن مشاعره والآمه مهاجما ساخطا ، ومن الظلم أن نويد من يذهب الى أن " الذم شأنه والثلب دكانه " (٤٩) أو أنه كان موتورا مبغضا حاقدا (٥٠) . فهو حقيقة لم يرحم كثيرا ممن اتصل بهم ، فسلكهم

بلسانه ، ولكنه في ثلبه انما كان يصف معاناة ، ويصور مأساة العلماء في بلاط الوزراء والأمراء . ولعل ما يشفع لهذا الرأي أنه لم يغفل مزايا من ثلبهم ، بل ذهب يوازن بين عيوبهم ومحاسنهم فـى للخلق والأدب والعلم والفصاحة ، واعتبره بفضلهم في كثير من الأحيان (٥١) . وذكر أن الغاية من ثلب الأمراء أو الوزراء ليس الاساءة والحقذ وحب التجريح بل " وتأديب النفس واجتلاب الأنس ، واصلاح الخلق ، وتخليص ما حسن مما قبح " (٥٢) . وأن أشد مايؤلمه ان يأتي النقص ممن يدعي الكمال أو الكرم أو العلم " فالنقص ممن يدعي الكمال أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقره ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة ، والبخل ممن يتبرأ منه عجب " (٥٣) .

والعبارة هنا شديدة الدلالة والإيحاء على الأمل الذي كان يعمر قلبه ، وهو يقصد هذه الفئة من الوزراء والأمراء طامعا في مالها وعلمها وكرمها ، ثم على الصدمة التي فوجئ بها ، والتي لم يكن يتوقعها ، ففرست في نفسه من المرارة بالقدر الذي كان فيها من أمل ، كما أن طبيعته المجبولة على الصراحة ، المشبعة بروح العلم ، تأبى السكوت على الخطأ أو الرضا بهضم الحقوق في عصر فيه من التسلط والقهر مايوجب على العاقل الايقف صامتا " فمن جعل نفسه شاة دق عنقه الذئب . . ومن نام على قارعة الطريق دقته الحوافر دقا . " (٥٤) فالفقر مؤلم حقا ، ولا بد للانسان ممن يعينه على الدهر فبنيتته متهافئة ، وطنيته منتشرة ، وله عبادة طالبة وحاجة هاتكة ونفس جموح وعين طموح ، وعقل طفيف ———— ورأي ضعيف " (٥٥) وفقير هذه الشاكلة فقير من جهة العرض ، فأما الفقير الحقيقي فالذي شهواته كثيرة ، وان كان كثير المال ، كما أن الغني الطبيعي لا يحتاج الى شيء ، وان كان

قليل المال، أي الذي ملك نفسه، وقممع شهوته، وأخذ لهب ارادته" (٥٦). لقد كان التوحيدي يشعر في قرارة نفسه بالحرمان . وكانت أزمة المادة تطارده في حله وترحاله ، وكان يشعر فـي أعماقه بتفوقه وامتيازه ، وكان يرى أن كبريائه تنشلم أمام الكبراء، وطموحه العظيم يتحطم على صخرات من اليأس والبؤس. وكان يشاهد بمرارة ظفر غيره بالمناصب ووصولهم الى أعلى المراتب، في حين يحرم هو من لقمة العيش مع ذكائه وقدراته الفذة .

كان غيره أكثر قدرة منه على التنفيذ وافتعال العلاقات ومعرفة طرق الوصول، وكان هو أكثر منهم معرفة وثقافة وعلماء . ووصل المفتعلون وحرم الأصلاء . وبين الطموح والحرمان هوة هائلة من التناقضات والمفارقات عاشها التوحيدي بنفسه وبأدبه .

٢ - التوحيدي بين أنانية الكبراء ونفاق الأدباء .

سعى التوحيدي ما استطاع لطلب المثالة بين الناس "ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم" (٥٧). فحرم من ذلك . ونظر حوله فوجد أن المشكلة عامة ، بل هي مسألة المسائل . انها مشكلة العلماء والأدباء المتفوقين الذين يعانون البؤس والحرمان والتحقير والاهانة ، في حين يتبوأ التافهون مراتب الرياسة والشرف في الدنيا . فأستأذه أبو سليمان المنطقي، سيد علماء عصره " بنجاجة ماسة الى رغيـف وحوـله وقوـته قد عجزا عن أجرة مسكنه ووجبة غذائه وعشائه " (٥٨).

وجاره وصديقه ابن يعيش اليهودي ظاهر الخصامة لاصق بالدقعاء (٥٩). وأبو بكر القومسي الفيلسوف " وكان بحرا عجاجا وسراجا وهاجا من الضر والفاقة ومقاساة الشدة بمنزلة عظيمة " (٦٠). وابن المستنير

الذي يتلمذ على السيرافي ذوقه مدقع وضر ظاهر وحالة سيئة وأمر مختل، ومعيشة ضيقة ، وكثرة عيال (٦١). والمعافى ابن زكريا النهرواني شاهه تلميذه التوحيدي في جامع الرصافة " وقد نام مستدير الشمس في يوم شاتٍ، وبه من أشرا فقرؤا بؤس، أمر عظيم مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور " (٦٢).

وأبو سعيد السيرافي " عالم ، وشيخ الدنيا . ومقنع أهل الأرض " (٦٣) ينسخ في اليوم عشر ورقات بعشر دراهم ليعيش (٦٤).

والفيلسوف يحيى بن عدي يكتب في اليوم والليـلة مئة ورقة وأكثر (٦٥). وكان التوحيدي يشعر شعورا حادا بأن هناك علاقة وجدانية تشده نحو الأدباء والعلماء الفقراء، فهو يأخذ آراءهم ، ويعجب بها، ويشاركهم فكرهم ورؤيتهم للحياة تماما كما يشاركهم بؤسهم وشكاوهم . فهو يستمع الى القومسي الفيلسوف والى شكواه من الحياة وسوء الحظ " ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من انسان ما بلغ مني ، ان قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها، وان خرجت الى القفار لأتيمم بالصعيد عاد طلدا أملس، فيرد التوحيدي عليه في مناجاة رائعة " ما أعرف لك شريكا فيما أنت عليه وتقلب فيه وتقاسيه سواي ، ولقد استولى علي الحرف، وتمكّن مني نكد الزمان " (٦٦). ويستغ الى أبي بكر محمد بن العباس الشاعر الخوارزمي يقول " اللهم نفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمنني حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم "، فيرد التوحيدي " اللهم اسمع واستجب ، فقد برج الخفاء، وغلب الجفاء، وطال الانتظار، ووقع اليأس، ومرض الأمل وأشفى الرجاء " (٦٧).

والخوارزمي الذي يعجب به التوحيدي ويتأسى به رجل عانى من دهره مـرارة الجور، ورأى الناس يقدمون عليه بديع

الزمان وهو لدن العود غشّ الالهـاب .
 والتوحيدى بترديد شكاته رأى فيه نفسه،
 وقد قدم الناس عليه أمثال ابن عباد (٦٨) .
 وكان التوحيدى يشق عليه ما تعاني
 هذه الفئة من العلماء ، ويكاد يقتنع أن
 الأمر في بؤسهم وشقائهم انما يعود الى
 أولى الأمر من الوزراء والأمراء، الذين لا
 يكفونهم عيشهم، ولا يقدمون لهم مايسـد
 حاجتهم، ليتفرغوا الى علمهم وأدبهم .
 كما كانت تشق عليه هذه المزاجية التي
 تتحكم بالأمراء والوزراء، فتجعلهم
 يعيشون في أنانية مطلقة، وتتحكم بهم
 المادة والطمع وحب التزلف . وتقودهم الى
 ازدراء العلماء ومعاملتهم باحتقار .
 فالصاحب بن عباد شديد السفه " عجيب
 المناقضة، سريع التحول من هيئة الى هيئة
 مستقبلا للأحرار بكل فرية وفاحشة . يستمع
 للعلماء والشعراء ويوهمهم بالعطاء السخي،
 ثم ينهال عليهم شتما وتوبيخا، ويأمر
 بحبسهم وضربهم (٦٩) . وابن العميد يطرد
 في عشية من عشايا رمضان شاعرا غريبا
 صائما لا يجد مكانا ينام فيه، ويمدحه
 شاعر من الكرخ، فلا يجيزه رغم توسل الشاعر
 والحاحه ومطالبته بحقه أمام الحضور (٧٠) .
 ويجتاز به أبو إسحق الفارسي، وكان من
 غلمان أبي سعيد السيرافي، وكان ملما
 بالكتاب، وقرض الشعر، وصنف وأملى وشرح
 وتكلم في العروض والقوافي والمعنى، وناقض
 المتنبي، وحفظ الطم والرم فما زوده درهما
 ولا افتقده برغيف بعد أن أذن له، وسمع
 كلامه، وعرف فضله، واستبان سعته (٧١) .
 والوزير ابن العارض يعلم تماما درجة
 ابي سليمان المنطقي في العلم والحكمة،
 ومع ذلك لا يدينه من مجلسه ولا يصبر
 عليه لعيب لحق بعينه (٧٢) .
 لقد سيطرت نظرة الاستعلاء على
 الأمراء والوزراء والقادرين على العطاء،
 فشمت نفوسهم، ففرقوا في بحر أنفسهم،

ولم يعودوا ينظرون الى بني جنسهم (٧٣) .
 وهذه الأنانية المفرطة والبخل، رغم القدرة
 على العطاء، خلقا في نفوسهم حب الرياء،
 بل والاستمتاع بالتملق، فلم يعودوا
 يستمتعون بطعم الولاية الا بما يسمعونـه
 من نفاق واطراء (٧٤) .

وقد فزع التوحيدى من هذه الظاهرة،
 وكررها في أكثر من مكان في كتبه، فقد
 رأى أن انعكاسها على الأدب والعلم خطير،
 فقد أفست البيان والبلاغة على الناس (٧٥) .
 وكان لها تأثيرها في انحطاط الأدب،
 فابتعد عن غايته المثلى، واتجه نحو
 ارضاء هذه الفئة بالمماراة والنفاق .
 فابن عباد لم يعد يرضيه من العلماء
 علمهم، ولا من الأدباء أدبهم، بل " ان كذبوه،
 وخدعوه، وموهوا عليه، ونافقوه، وتعلقوه
 قـربهم وأدناهم، وأكرمهم وأعطاهم، وان
 صدقوه، وماتنوه، وثبتوا له، أبعدهم،
 وأقصاهم، وحرّمهم، وأخزاهم " (٧٦) . فاقبل
 العلماء عليه " يدعي له التبريز في كل
 علم، وهو لا يعرف النحر إلا ما حل منه، ومن
 الكلام إلا ما وضع، ثم هو في اللغة على
 تصحيف شديد، وتخليط كثير، وفي الأخبار على
 تمويه لا يخفى على مميز (٧٧) ولم يعد
 يتقدم عنده إلا " الهوج الطغام الذين
 يجوبون الدنيا، ويدخلون كل ميسدان،
 ويسخرون منه، فيقولون، فعل مولانا، وكان
 مولانا، وما رأينا مثل مولانا (٧٨) .

وابن العميد ينهج نفس النهج، ويسلك
 نفس السلوك، فيطرب لذل الشعراء وتوسلهم
 لعطائه " أيها الرئيس : قد لزمت فناءك
 لزوم الظل، وذللت لك ذل النعل، وخدمت
 أملى فيك خدمة ناصح لنفس فيما التمسـت
 من الصلة والجائزة، ولك فيما أوفدت عليك
 من الشناء والمدحة " (٧٩) .

واستشرى داء النفاق الى الصوفييين
 والزهاد مع تدينهم وتقشفهم، ورغم علمهم
 برقاعة من يمدحون أو يتملقون (٨٠) .

وإذا كان التوحيدى يرى أن أنانية
الأمراء والوزراء وذوى الشأن تكمن خلف
موجة النفاق الأدبى والعلمى، فإنه لا ينكر
أثر الفقر فى هذه الظاهرة وتغشيتها، فجرة
الحرمان أمر من جرعة الشكل، وضياح التأمل
أمر من الموت، وخدمة من لم يجعله الله
أهلاً أشد من الفقر" (٨١). ويرى أن الفقر
بمآسيه، يدفع الأديب دفعا إلى المبالغة
والتهويل وقلب الصور وإخفاء الحقائق،
فيقدم على هذا مع ألمه الشديد بسوء ما
يفعل " وصاحب الفقر أن مدح فرط، وأن ذم
أسقط، وأن عمل صالحا أحبط، وأن ركب
شيئا خلط، ولم أر شيئا أكشف لغطاء الأديب
ولا أنشف لماء وجهه، ولا أذعر لسرب حياته
منه؛ وأن الحر الأنف والكريم المتعيف من
تعاساته والتجلد عليه، لفي شغل شاغل
وموت ماثت". (٨٢) فليس هناك أشد من خطر
الفقر فى الأدب والدين وعزة النفس، اذ يجعل
الشاعر " يجمع دينه ومروءته فى قرن
تهاوناً بهما، وعجزاً عن تدبيرهما، فهو
لا يكثر كيف أجاب سائلاً، وكيف أبطل
مجياباً، وكيف ذم كاذباً ومتحاملاً، وكيف
مدح موارباً ومخاتلاً". (٨٣)

والفقر نفسه، هو الذى يدفع الشعراء
والعلماء إلى أن يتزاحموا على أبواب
الوزراء والأمراء، ويقبلوا أن يقرعوا
بالحصي (٨٤). وهو نفسه الذى يدفعهم إلى
التزاحم على أبواب بعض الوزراء مع
رقاعتهم وجنونهم (٨٥) ويدفع بالمتصوفة
إلى التحامق والتخلي عن المبادئ (٨٦).
ويدفع الشعراء إلى الشتم للحصول على
العمال (٨٧).

واشكالية الفقر وما ينجم عنها من
إراقة ماء الوجه، هي التي دفعت التوحيدى
إلى أن يقف معتذراً بحرارة للأدباء الفقراء
إذا ما التمسوا طعامهم بالشتم والتجريح،
وجعلته يرفض هذا النصح والوعظ الموجه

من الحكماء إلى الفقراء بضرورة التطلبي
بالصبر " فليس المضطر كالمختار، ولا المحرج
كالسليم، ولا الموفور كالعوقور" (٨٨).

ويرى فى عطاء الأمراء والوزراء واجباً
وحتمية وحقا، ذلك أن هؤلاء الأدباء وصفوا
محاسنهم، وستروا مساوئهم، واحتجوا لهم،
بل واضطروا إلى الكذب والنفاق من أجلهم،
ومن ثم فإشابتهم دين لابد من سداذه (٨٩)،
فاذا ما حرموا من حقوقهم، فيجب ألا يؤاخذوا
إذا ما اتجهوا اتجاهها حاقدًا أو شامتًا،
فذلك فيه شفاء لأنفسهم وبـــــــرد
لغليظهم (٩٠).

وإذا كان التوحيدى يعتذر للأدباء
الفقراء، لأنه عاش التجربة نفسها واضطرت
الفاقة أن يبتلى بالوقوف أمام من لا يستحق،
إلا أنه حريص كل الحرص على صيانة أدبه
من السقوط، ويلج على ضرورة التلازم بين
شخصية الأديب وبين أدبه " فالكتاب الحر
لا يقبل الرياء ولا الذل بأي من الأحوال " ولعن
الله الأدب إذا كان بائعاً مُذِلاً له،
ومشتريه مهيناً لقدره، ومما كسا فيه (٩١).
حقاً أن الصبر على الرقاعة مغرور، ومكاذبة
النفس وخداع العقل من الكلف الشاقة والأمور
الصعبة، ولكن " لعن الله الرغيف إذا لم
يصب الابضعة النفس، وغضاضة القدر، وكدا الروح
ومغارقة الأدب الحسن ودنس العرض النقصى
وتمزيق الدين المعتقد، وكسب الســـــــرور
المحبط" (٩٢).

ومن هنا كان إعجابه بأبي بكر
القومسي الفيلسوف الذى رفض - رغم معاناته -
أن يقصد ابن العميد وابن عباد قائلاً
معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة الجهال
والتيسر، والصبر على الضيم والوبيل أولى
من النظر إلى محيا كل ثقل" (٩٣). لقد
قصد التوحيدى ابن عباد ليعينه على
فقره مقابل أدبه وعلمه ومساعدته،
فكلّفه ما لاطاقة له به، وفوجى بطباعه

الحادة ورغبته بالنطق والتفان. وحزن في نفسه أن يستخف بأدبه، فتجراً على صاحب في مجلسه، وشباهي بعلمه، وطعن في رسائله^(٩٤) وسخط على أسلوبه في السجع^(٩٥) واستخدام الغريب والعويص^(٩٦)، وعجمته المخلوطة وعربيته المخلوطة بالتعجيم^(٩٧). وتجاوز الحد في مجلس ابن سعدان، فتحامل على ندائه ممن العلماء والأدباء الذين ألفوا التزللف والتودد من أجل المال^(٩٨). ورفض أن يعمل لديه ساعياً ناقلاً يفشي ما يقولهم العلماء^(٩٩). وطلب من الوزير ابن العارض أن يؤذن له في كاف المخاطبة وتساء المواجهة في حديثه معه "حتى يركب جدد القول من غير تقيّة ولا تحاشي ولا محاولة ولا انحياس"^(١٠٠).

ولم تكن تصرفات أبي حيان في مجالس الكبراء على هذا النحو بسبب عدم لباقة في التحدث إلى الكبراء أو لسذاجة وقلّة دراية بآداب المجالس^(١٠١)، بل هي في حقيقة الأمر بذور ثورة كانت تعتمل في نفسه تجاه ما يرى في مجالس الوزراء من محن وعيب واستهتار بالعلم وأدله. ثم ما يراه من نفاق ورياء وتزلف يفصل بين الأديب وأدبه، ويقتل مواهب الأدباء، ويجعل الأدب خادماً لأنانية الأمراء بدلاً من أن يكون في صالح المجموع معبراً عن المثال.

وأخذت بذور ثورته النفسية تنمو، وتمتدح، وتتفاعل، لتشكل لديه نظرة معينة ومسلوكاً خاصاً تجاه الحياة والأحياء.

٣- أزمته النفسية وأبعادها.

أخفق التوحيدي في الحصول على مآربه في الدنيا، فافتقد المال والجاه والتقدير، ورأى فقر أصدقائه من العلماء والفلاسفة واضطهادهم، وانهارت في نظره

المثاليات، فترك هذا جميعه اثراً عميقاً في نفسيته، وكلل له انعكاسات على فكره ومفاهيمه. بل إن هذا في الحقيقة هو ما شكّل أزمته النفسية وبالتالي رؤيته للحياة والأحياء. لقد جعل منه الاخفاق انساناً منطوياً على نفسه. وأمل لديه مع مرور الزمن حقداً وبغضاً ومرارة ونفرة من الأحياء والمجتمع. ودعم لديه الاحساس بالكبرياء والاستعلاء. وإذا التوحيدي الذي كان يبحث عن المال والجاه شاكياً صرف الزمان، يسخط على الجاه وعلى الرئاسة وعلى المال ويعتبرها مهالك الخلق، ويدعو الله أن يكره له الدنيا، ويرغبه في التقوى^(١٠٢). وأخذت نظراته إلى البشر تتم بالازدراء والاحتقار، وقوي في نفسه شعور الانطواء "فقد أميت غريب الحال، غريب الخط، غريب الخلق، متأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للضمت، ملازماً للحيرة، متحملاً للأذى، يائساً من جميع من أرى"^(١٠٣).

وكثرت الشكوى في كتاباته، وتنقل قلقه النفسي واضطرابه العادي، وتمثل القلق الانساني عامة، والاحساس بالضيق في عصر يقوم على المفارقات والظلم والاضطهاد، وأخذت كتابته تتمثل أكثر فأكثر بالانسان، لتعبر عن أفكاره وهواجه ومثاعره، وحفلت بألوان التعبير عن حياة الانسان وتجاربه وأشواق النفس الانسانية وتطلعاتها^(١٠٤). ولعل هذا

القلق الانساني وما يشيع فيه ممن حقد وثورة على الحياة والأحياء هو سر من أسرار نبوغ التوحيدي وابداعه^(١٠٥).

ساعت نظرة التوحيدي في عصره وفي ولاته وفي أناسه، فانكفاً على نفسه، بمحصنها، وينقب عما دقّ وخفي من مشاعرها، والتفت إلى الذات الانسانية، قاستقرأ خبايا النفوس وصوّر خلجاتها وأخيلتها وشوفاتها

دون خوف أو تردد (١٠٦). لم ينعم بمشاعر المودة والصداقة داخل أسرة خاصة به ، وافتقد المودة داخل مجتمعه وأبنائه طبقته ، فعاش جوعاً عاطفياً وترسخ في نفسه ألم مضم ، أخذ يبدو في تساؤلاته ، لدى حديثه عن المداقة والمديق ، والعلاقات بين معاصريه ، وفي تصويره للنفسيات المختلفة ، في اقترابها وبعدها وتقابلها وصدها (١٠٧). وفي هذه الحيرة التي تلازمه في أحاديثه إلى مسكويه في الهوامل والشوامل ، وفي أحاديثه في المقابسات . وسادت كتابته مسحة تشاؤمية كثيفة تجاه العلاقات الانسانية ، فساء ظنه بالأصدقاء حتى أنكر وجودهم " وقبل كل شيء ينبغي أن نشق بأنفسه لأصديق ولا من يتشبه بالمديق " (١٠٨) .

وعمت نظراته التشاؤمية في المداقة جميع الفئات من ملوك ، وأصحاب ضياع ، وتجار ، وأصحاب دين وورع ، وكتاب وأهل علم (١٠٩) . وامتدت نقمته لتشتمل العامة ، فأبدى كراهيته وسخطه نحوهم - رغم أنهم كانوا يشاركونه السعي إلى الرغيف - ربما كان ذلك لابتعادهم عن مستوى تفكيره ، كما أنهم يفتون عليه مجالسة أهل الحكمة ، فهم " همج رعاع لاعقول لهم ، أولهم أشياء شبيهة بالعقول " (١١٠) . ولم تلبث هذه النظرة أن أخذت تتغير في المرحلة الأخيرة من صلاته بالوزراء ، كما يبدو من عطفه عليهم وتقديسه لهم لمصالحهم في بلاط ابن سعدان (١١١) .

وأحلّ التوحيد صداقة العقل محل صداقة الإنسان ، وفي صداقة العقل سعادة ورشد ونيل وأمان ، أما الصديق الإنسان " فإن وجدته لم يف لك بما يفي به العقل ، ولم يبلغ بك ما بلغ العقل ، وربما أتعبك ، وربما خربك وربما أشقاك " (١١٢) . وكان لنفسية التوحيدي المتشائمة

الساخطة أن تعبر عن سخطها واشمئزازها ويأسها عن طريق الأدب ، فخرجت من التنظير إلى التطبيق ، ووجدت في الأدب الساخر سلاحاً فاعلاً ، وتوظفه لنقل أحاسيسها ونظراتها من الوجود والأحياء والعلاقات ، فأخذ في تهكمه يتلمس الخصائص الخفية الموجودة في الأشخاص باحشا عن كل ما يرمز إلى التدني الخلقي ، ويشير إلى الحطسة والنذالة (١١٣) فابن شاهويه " شيخ ازراء وصاحب مخرقة ، وكذب ظاهر ، كثير الإيهام ، شديد التمويه ، لا يرجع إلى ود صادق ، ولا إلى عقد صحيح ، وعهد محفوظ . . . " (١١٤) . وأما ابن مكيخا صاحب ديوان عقد الدولة فهو " أرعن خسيس ، ماجاء يوماً بخير قط ، ولا في رأي ولا في عمل ولا في توسط ، وأصحابنا يلقبونه بقفا ، وهو منهمك بين اللذائذ ، همه أن يتحسّن الشراب في نفس أو نفسين ، ثم يقط كالجذع اليابس للسنان ولا إنسان " (١١٥) . فإذا ما مدح شاب مدحه شيء من الهجاء " وأما مسكويه ، فلطيف الأخذ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشي ، قليل السكب ، بطيء السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد التوقي ، ضعيف الشرقي ، يرد أكثر مما يصدر ، ويتناول جهده ، ثم يقصر ويطير بعيداً ، ويقع قريباً " (١١٦) . فإذا تحدث عن أحبهم لم تخل صورته من العز . " أما السلامي فهو طلو الكلام ، متسق النظام كأنما يبسم عن شجر الغمام ، خفي السرقعة لطيف الأخذ ، واسع المذهب لطيف المغفارس جميل الملابس " (١١٧) .

ولعل أبعد صورته الساخرة تأثيراً ، هو ما قدمه في كتابه مثالب الوزراء ، فقد حملت صورته الساخرة تحليلاً رائعاً للشخصية التي تحتل وراء المنصب السامي والأعطيات ، فجاء كتابه ثورة على علاقة العبودية بين الأديب ومن يفضل عليه بالانفاق (١١٨) . ويبدو أن ما جعل صور التوحيد بعيدة

التأثير هو اعتماده الصور العادية ، ذلك أنه رأى " أن ملح هذه الخطابة ينبتر وطربها ينقص في الرواية دون مشاهدة الحال وسماع اللفظ، وملاحة الشكل في التحرك والتثني والترنخ والتهادي ومد اليد، وليّ العنق، وهز الرأس والاكتاف، واستعمال الأعضاء والمفاصل" (١١٩). فإذا ما صور ابن عبّاد على لسان ابن العميد قال " أحس أن عيني قد ركبتا من زئبق، وعنقه عمل بلولب ... فإنه كان ظريف التثني والتلوي، شديد التفكك والتنقل، كثير التعرج والتموج في شكل المرأة المومسة والفاجرة الماجنة" (١٢٠). وإذا ما تحدث عن اعجاب ابن عبّاد بالمدح ونفاق المتزلفين قدم صورا ناطقة بهذا " فتراه عند هذا تهذر وأشباهه يتلوى ويتبسم، ويظهر فرحا، ويتقم ... ويتشاكس، ويتحامل، ويلوي شذقه، ويبلغ ريقه ... ويتهالك ويتمالك ويتقابل ويتمايل ويحاكي المومسات" (١٢١). فإذا ما صورّه ينشد، حرص على المزج بين ملامح الوجه وحركات الجسم، ليوفر أكبر قدر من عناصر الاضحاك " كان صاحب ينشد، وهو يلوي رقبته، وتجمّع حدقته، وينزى أطراف منكبه، ويتشاكل ويتمايل، كأنه الذي يتخطه الشيطان من المص" (١٢٢). فإذا ما تناول طريقته في السجع وتكلفه ذلك قال: " يأتي بالمسجع في اثر كلامه، مع روية طويلة، وأنفاس مديدة، وحشرجة صدر، وانتفاخ منخريه، والتواء شذقيه، وتعويج عنقه واللعب بعنقه" (١٢٣). وإذا كان التوحيد قد أدرك ما في الوجه وحركات الجسم من عناصر اضحاك، فإنه أدرك أيضا ما تحمله الكلمات والجمل من عناصر ضاحكة إذا حملت معاني سخيفة وقيلت بصورة آكية (١٢٤).

وخلاصة القول ان هذا اللون من الأدب

الساخر كان منفصلا يبت التوحيدي من خلاله أشجانه وهمومه، كما مكنه من أن ينفذ الى عالم النفس يستكشفها، ويتعمق أسرارها، ويظهر عيوبها أو محاسنها في بيان بعيد التأثير .

٤ - غربته النفسية .

فقد التوحيدي الصلة بينه وبين ذوي الجاه، وبينه وبين العامة، وترسخ في قرارة نفسه أن كل المقاييس الأصلية في النظر الى الدين والخلق قد اهتزت، وحل مكانها نظرة من اللامبالاة وعدم الاكتراث . واستشرى الفساد الاجتماعي، فعم جميع الطبقات . وتعددت المذاهب، وفسد المتكلمون . وكثر الشك والارتياب بين طبقات المفكرين . وأحس احساسا قويا بأن النزعات الجديدة في النظر الى اللغة والأدب أخذت - بتشجيع من القائمين على الأمر - تحل مكان النظرات القديمة، رغم ما في الجديد من سقوط ولحن وانحدار، ووجد أن كل محاولاته الفردية ونزعاته في تشييت روح المحافظة وابقاف هذا المد الجارف ذهبت عبثا . لقد حاول أن يقيم ارتباطه بالناس على أساس عقلي دون تعصب لمذهب أو معتقد، فلم يسلم من الاتهام في دينه ومعتقد، فُرُمسي بالكفر والزندقة والالحاد (١٢٥)، وهي تهمة أشد ايلاما من البؤس والفقر، لأنها تبغضه الى الخاصة والعامة، وتلقي على نتاجه غبارا من الشك، وتطوح بمكانته الأدبية والعلمية (١٢٦). والتحق بركسب الفلاسفة، لعله يجد في الفلسفة شفاء لما في نفسه من تساؤلات حول المشكلات الاجتماعية والدقائق الفكرية، فأرضته الى حين، وفلسفت له عالمه الواقعي المولم، فعرفته شرف النفس الانسانية والشعور الكامل بالمسؤولية الملقة على عاتقه من حيث هو انسان (١٢٧)، ولكنهما

عجزت عن حل سيدة المشكلات او "ملكة المسائل" عنده وهي "حرمان الغاضل وادراك الناقص" (١٢٨). ولم يستطع أساتذته من المتصوفة والفلاسفة بمثالياتهم وتقشفهم - أن يشبعوا حاجته حول هذه المشكلة .

ووجد التوحيدي نفسه غريبا في كل شيء، في أدبه وخلقه، في تدينه وتصوفه، في فلسفته وفنه . وأحس احساسا حادا بأنه غريب عن أهل عصره مرتفع عن زمانه ، متقدم عليهم (١٢٩) . وشعر بانقطاع الصلة بينه وبين الوجود، وبينه وبين الأحياء . ووجد أن كتبه هي التي تربطه بعصره وبالأحياء فيه ، فانقضى عليها، يحرقها، ويفسلها بالماء، وقلبه يتقطع ألما وحسرة (١٣٠) . ويعتذر إلى صديقه أبي سهل علي بن محمد، عندما يلومه على ذلك رسالة (١٣١) تفيض ألما يصور شقاءه وبلواه بالخاس، وسوء ظنه بهم ، كما يصور فشله في الحياة ، وأن علمه قد قصر عمله عنه ، فمن التفاق أن تظل كتبه تدعو إلى شيء لم يعمل صاحبها به . فضلا عن أنها شواهد تعذبه باظهارها الفارق بين ما أملته وما صار إليه . لقد بذل فيها عسارة نفسه ، وأودع فيها كل أصناف العلم ، وكان على شعور قوي بنفاستها فلم يلق من الناس جزاء . كما أنه يشق عليه أن يتركها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسونه عرضه إذا نظروا فيها (١٣٢) .

وأخذ التوحيدي ينخلع عن عصره وأهل عصره ، ليعيش في ذاته ، يمحصها ويحكم عليها فيصدق في تمحيصه ، ويقسو في حكمه ، ويكشف عن معاناة نفسه وخفاياها وأطوارها في تأمل صوفي " أما حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأن الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب علي فأكون من العاملين لها .

وأما ظاهري وباطني، فما أشد اشتباههما، لأنني في أحدهما متلطف تلطفا، لا يقربني من أجله أحد ، وفي الآخر متبذخ تبذخا لا يهتدي فيه إلى رشد . وأما سري وعلاييتي فمعمقتان بعين الحق، لخلوهما من علامات الصدق، ودنوهما من عوائق الرق ، وأما سكوني وحركتي فأفتتان محيطتان بي ، لأنني لم أجد في أحدهما خلاوة النجوى، ولا أعرف في الآخر من مرارة الشكوى . وأما انتباهي ورقدتي فما أفرق بينهما إلا بالاسم الجارِي على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة ، وأما قراري واضطرابي، فقد ارتبني الاضطراب حتى لم يدع في فضل للقرار ، وغالب ظني أني قد علققت به ، لأنه لا طمع لي بالفكاك ، ولا انتظار عندي للانفكاك . وأما يقيني وارتياحي فلي يقين، ولكن في درك الشقاء ، فمن يقينه هكذا ، كيف يكون خبره عن الارتياح ! (١٣٣) .

وخلص التوحيدي في هذه المرحلة من مطامع الدنيا ، وهدأت حاجات جسمه ، واستيقظت حاجات روحه ، فاتجه إلى الله منقطعاً إليه ، وأصبح الفقر لديه محنة يختبر بها الله خلقه ، ليشعرهم بنقصه ، فيتضرعوا إليه . (١٣٤) وابتعد عن الذم والشلب والتحرش ، ولم يعد يعرض لآراء الفلاسفة والمتكلمين والأدباء ، بل اتجه إلى الحمد والتقديس والانقطاع والتبتل ، وسما شعوره بالحرمان المادي، ليتحول إلى شعور بالحرمان من استجلاء حقيقة الحق ، وتحولت الشكوى من المخلوق إلى الخالق ، ومن طلب القوت إلى طلب المعرفة (١٣٥) ، وأخذت شكل قلق نحو الاستشراق العلوي والاشراق السماوي ، قلق الروح المتحفزة إلى عالم الكمال والخير (١٣٦) ، ودلغت نفسه إلى إيمان مستسلم، فيسه

مرارة اليأس وأمل الخائب " وفيه عزوف عميق عما يربطه بالعاجلة، واستدعاء متوسل لكل ماتلوج منه بوارق الآجلة، وفيه شعور بهوة هائلة تغفر فاها في نسيج الوجود، وفيه طعم الرماد يتذوقه المرء في كل عبارة وإشارة" (١٣١) وعاش التوحيدي في وحدة ذاتية مطلقة يحملها في داخل نفسه، ولم يعد الوطن المادي له معنى إذا قيس بالوطن الروحي الذي تقطنه النفوس الشاردة (١٣٢). وأخذ يتأصل لديه مفهوم الاغتراب - الذي لازمه منذ مبتدأ حياته - ليشكل لديه فلسفة أوشبه فلسفة تحمل بعدا صوفيا، فالغريب الحق ليس ذلك الذي " نأى عن وطن بني بالماء والطين، وبعد آلاف له، عهدهم الخشونة واللين " وإنما هو ذلك الذي طالت غربته في وطنه، وقل حظه ونصيبه من حبيبه وكنه " (١٣٣).

فالغربة الحقيقية تكمن في غربة النفس واحساسها الداخني بالجفوة والانطواء " وقد قيل الغريب من جفاء الحبيب، وأنا أقول بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حبابه الشريب، بل الغريب من نوذي من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب" (١٣٤). والغريب في نظر التوحيدي هو من يفقد الصلوة بالحياة والأحياء، فيصبح غريبا في أقواله وأعماله وأدباره وأقباله، ينطبق وصفه بالمحنة بعد المحنة ويدل عنوانه على الفتنة إن حصر كان غائبا، وإن غاب كان حاضرا، إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره تستعرفه (١٣٥). هو من طينة مختلفة عن طينة الانسان العادي مطارد دائما مرفوض أبدا " إذا ذكر الحق هجر، وإذا دعا إلى الحق زجر، إذا أسند كُذِب

وإذا تظاهر عُذِب ... طال بلاؤه من غير ذنب، واشتد ضرره من غير تقصير، وعظم عناؤه من غير جدوى ... إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا حوله ... إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم كمدته الحزن واللهف ... إذا أقبل لم يوسع له، وإذا أعرض لم يسأل عنه ... إذا سأل لم يُعط، وإن سكت لم يبدأ ... إذا عطس لم يشمست، وإن مرض لم يُتفقد ... إذا زار أُغلق دونه الباب، وإن استأذن لم يرفع له الحجاب ... إذا نادى لم يجب وإن هادى لم يجب" (١٣٦) ويخلع التوحيدي على الغريب تشوفه وتطلعه ولباسه سمات الصوفيين وحالتهم " الغريب في الجملة من كل شيء حرقة، ويعصفه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغداؤه حزن، وعشاؤه شجن، وآراؤه ظنن، وجميعه فتن، ومغرقه محن، وسره علن، وخوفه وطن ... الغريب من لبسته خرقة، وأكلته سلقة، وهجعتة خفقة " (١٣٧).

وتلتقي فلسفته في الاغتراب التقاء تاما بآراء المتصوفة، فالغربة في حقيقتها تهالك في ذكر الله، وتوجه إليه وفناء فيه : " الغريب من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه، بل الغريب من تهالك في ذكر الله متوكلا عليه، بل الغريب من توجه إلى الله خاليا من سواه، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه " (١٣٨).

والتوحيدي في هذا اللون من أدب اغتراب النفس، يكشف عن حسه المرهف، وقدرته العجيبة على تصوير العجز الانساني، وحيرة البشرية أمام القسوة الالهية الأعظم، وهو في تمحيصه لذاته وفي شكواه وتشوفه " ينفذ من الظاهر إلى الباطن، فلا يتخذ من الأحداث إلامورا

وعلاقات على الجوهر والباطن في أعماق الوجود كله ، فالآلم الذي يحياه في لحظة ، هو ألم مرفوع الى أسس السرمدية ، والانفعال الذي ينطبع في نفسه من موضوع محدود سرعان ما يفتح على الوجود الواحد بأسره " (١٤٥) .

وهكذا كانت حياة التوحيدي ، رحلة آلام ، تصور مأساة الفرد في نفسه ، ومآساته في مجتمعه . ومكّنه حسه المرهف ، وشفافية. نفسه من أن يعكس أوضاعه الخاصة ، وأوضاع عصره في مختلف الحالات والمراحل .

- فاذا حفل شعره بالشكوى والآلم والاضطراب . فانما هو في الحقيقة

ينقل القلق الانساني في عالم المتناقضات ، محاولا أن يشق طريقا واضح السمات والمعالم لنفسه ولغيره .

واذا كانت حياته تاريخا لخيبة متجددة متعددة ، فقد نقل حياة عصر ، وحياة أمة ، في فترة حرجة ، داخل الشك والغموض والتردد علماءها وأدباءها .

لقد عمقت مآساته احساسه بمأساة جيله ، فجاء أدبه وجدانيا معبرا عن آلام نفسه وآلام أمته ، مصورا لشقاء الانسان في أموره الحياتية وشؤون الفكرية على اختلاف العصور .

- (١٧) محيي الدين ، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدي، سيرته - آثاره) ص ٢٨ .
- (١٨) التنوخي (نشوار المحاضرة) ٣٥١/١ .
- (١٩) متز، آدم (الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ٤١٦ .
- (٢٠) التوحيدي، أبوحيان (البصائر والذخائر) المقدمة ب .
- (٢١) السبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ١٢ .
- (٢٢) المراغي، عبد الله (الفتح المبين - في طبقات الأصوليين) ص ٣٠١ .
- (٢٣) ابن خلكان (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ج ٥ ص ٢٢١ .
- (٢٤) المصدر السابق ٧٨/٢ .
- (٢٥) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ١٥٠/٨ .
- (٢٦) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٢٣/٢، ٢٣/١ .
- (٢٧) ابن النديم (الفهرست) ص ٣٢٢ .
- (٢٨) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٣٨/٢ .
- (٢٩) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٥/١٥ .
- (٣٠) المصدر السابق ٥/١٥ .
- (٣١) ينظر في هذه المعاني ما أورده التوحيدي في (الامتناع والموانسة) ٧/١، ١٤٧/١، ٢٠٦/١ .
- (٣٢) ذكر ياقوت في (معجم الأدباء ٧/١٥) أن له تصانيف كثيرة، ذكر منها (١٧) تصنيفاً .
- (٣٣) المرجع السابق ٦/١٥ .
- (٣٤) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٢٩، ٢٠/١ .
- ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٢٩/١٥ .
- والتوحيدي (الهوامل والشوامل) ص ٢٤ .
- (٣٥) محيي الدين، عبدالرزاق (أبوحيان التوحيدي) ص ٣٦ .
- (٣٦) الحوفي، أحمد (أبوحيان التوحيدي) ص ١٢٨ .
- (٣٧) السبكي (طبقات الشافعية) ٢٨٧/٥ .
- (٣٨) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٣٦/١٥ .
- (١) ابن الأثير (عماد الدين) (البداية والنهاية في التاريخ) ج ١١ ص ٢٣٢ وما بعدها .
- (٢) ابن الجوزي (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) ج ٨ ص ٢١ .
- (٣) التوحيدي أبوحيان (أخلاق الوزيرين) ص ٨٣ .
- التنوخي (نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة) ج ١ ص ٣٥١ .
- ابن تغري بردي (النجوم الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة) ج ٣ ص ٢٧٣ .
- مسكويه (تجارب الأمم) ج ٢ ص ٢٠٣ .
- ابن الأثير عز الدين (الكامل في التاريخ) ج ٨ ص ٦١٩ .
- (٤) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ج ١ ص ١٨، ج ٢ ص ١٩٤ .
- (٥) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ج ٢ ص ٢ .
- (٦) الكيلاني، ابراهيم (من كتاب الامتناع والموانسة) ص ٩ .
- كرد، محمد (أمراء البيان) ص ٤٨٨ .
- (٧) التوحيدي، أبوحيان (المقابسات) ص ٥٣ .
- (٨) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ج ١ ص ٢ .
- (٩) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ج ١٥ ص ١٦ .
- (١٠) المصدر السابق ١٣/١٥ .
- (١١) التوحيدي أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٢٢٧/٣ .
- (١٢) المصدر السابق ١٤٣/٢ .
- (١٣) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٢٣/١٥ .
- (١٤) المصدر السابق ٣٧/١٥ .
- (١٥) التوحيدي، أبوحيان (أخلاق الوزيرين) ص ٤٩٧ .
- (١٦) التوحيدي، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ج ٣ ص ٨٥ .

- (٣٩) المصدر السابق ٢١٣/١٤ .
- (٤٠) الشعالبي (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) ج ٣ ص ١٥٤ دار الفكر - بيروت .
- (٤١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٥/١٥ .
- (٤٢) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٥/١ .
- (٤٣) الشعالبي (يتيمة الدهر) ١٨٩/٣ .
- (٤٤) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين) ١٤١ .
- (٤٥) المصدر السابق ٤٩٤ .
- (٤٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ٣٢/١٥ .
- (٤٧) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ٦/١ .
- (٤٨) تنظر رسالته الى ابن العميد في (معجم الأدباء ٣٧/١٥) ورسالته الى أبي الوفاء للمهندس في (الامتناع والموانسة ٢٢٦/٣) وينظر دفاع أحمد الحوافي عن التوحيد في كتاب (أبي حيان التوحيدي ١٤٩) .
- (٤٩) ياقوت الحموي، (معجم الأدباء) ٦/١٥ .
- (٥٠) الكيلاني، إبراهيم (أبوحيان التوحيدي) ٥١ .
- (٥١) ياقوت الحموي (معجم الأدباء) ٦/١٤ .
- ٢١٣/١٤، ٢١٦، ٢١٧، ٣٦/٤٤ .
- التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٣١) (الامتناع والموانسة ١١، ٨/٢٤٢) .
- (٥٢) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ١٣) .
- (٥٣) المصدر السابق ٥٣١ .
- (٥٤) المصدر نفسه ١١ .
- (٥٥) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ١٤/١) .
- (٥٦) المصدر السابق ٩١/٢ .
- (٥٧) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٨/١٥) .
- (٥٨) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٣١/١) .
- (٥٩) المصدر السابق ١٠٥/١ .
- (٦٠) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٠/١٥) .
- (٦١) المصدر السابق ١٧٧/٨ .
- (٦٢) المصدر نفسه ١٥٢/١٩ .
- (٦٣) التوحيد، أبوحيان (المقاييس ٢٣) .
- (٦٤) البغداد، تاريخ بغداد .
- (٦٥) ابن النديم، الفهرست ٣٢٢ .
- (٦٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء ١٣/١٥ .
- (٦٧) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة) ص ٢ .
- (٦٨) مبارك، زكي (النشر الفني في القرن الرابع الهجري) ج ١ ص ١٦٩ .
- (٦٩) حدث هذا مع الجريري غلام ابن طرارة، ومع الجامدي الشاعر، وأبي زيد الكيلاني .
- (أخلاق الوزيرين ١١١) .
- (٧٠) المصدر نفسه ٣٣٤ .
- (٧١) المصدر نفسه ٣٥٢ وينظر ص ١٣١ .
- (٧٢) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٣١/١) .
- (٧٣) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٢٨٢) .
- (٧٤) المصدر نفسه ٢٨٧ .
- (٧٥) التوحيد، أبوحيان (الامتناع والموانسة ٢٠/١) .
- (٧٦) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٤٩١) .
- (٧٧) المصدر نفسه ١٦٢ .
- (٧٨) المصدر نفسه ١٦٢ وينظر (الامتناع والموانسة ٥٨/١) .
- (٧٩) التوحيد، أبوحيان (أخلاق الوزيرين ٣٣٥) .
- (٨٠) المصدر نفسه ٢٨٣ .
- (٨١) المصدر نفسه ١٩ .
- (٨٢) المصدر نفسه ٣٥٠ .
- (٨٣) المصدر نفسه ٧ وينظر ص ٣٣ .
- (٨٤) المصدر نفسه ١٥٦ .
- (٨٥) المصدر نفسه ٤٨٧ .
- (٨٦) المصدر نفسه ٢٨٣ .
- (٨٧) المصدر نفسه ٢٠ .
- (٨٨) المصدر نفسه ٤١٠ .
- (٨٩) المصدر نفسه ٢١ .
- (٩٠) المصدر نفسه ٥٣٠ .
- (٩١) المصدر نفسه ٣٤١ .
- (٩٢) المصدر نفسه ١٧٢ .
- (٩٣) ياقوت الحموي (معجم الأدباء ١٢/١٥) .
- (٩٤) المصدر نفسه ٢٧/١٥ .

- (٥٩/١)
- (١٢٢) التوحيدى، أبوحىان (أخلاق الوزىرىن ١٠٣)
- (١٢٣) ياقوت الحموى (معجم الأدبا ٦٤/٣٦٥)
- (١٢٤) الكىلانى، ابراهىم (أبوحىان التوحدى ٧٢ ومابعدها) وىنظر أبوحىان التوحدى فى (أخلاق الوزىرىن ١٢٢) وياقوت الحموى (معجم الأدبا ٦/١٩٩، ٢١٣)
- (٢٠٥) ىنظر رأى الذهبى فى اتهامه فى طبقات الشافعية للشبكى ودفاع السبكى عنه ٢٨٧/٥٠
- (١٢٦) الحوافى، أحمد (أبوحىان التوحدى ١٦٧)
- (١٢٧) عباس، احسان (أبوحىان التوحدى ١٠٥ ومابعدها)
- (١٢٨) أبوحىان التوحدى ومسكويه، (الهوامل والشوامل ٢١٣)
- (١٢٩) متن، آدم، (الحضارة الاسلامىة ٤١٦/١)
- (١٣٠) ياقوت الحموى، (معجم الأدبا ١٥٤/١٧)
- (١٣١) المصدر نفسه ١٩/١٥ - ٢١
- (١٣٢) التوحدى، أبوحىان (الاشارات الالهىة) ص ٢٣
- (١٣٣) التوحدى، أبوحىان (الاشارات الالهىة ٦)
- (١٣٤) التوحدى، أبوحىان (أخلاق الوزىرىن ٣٠٥)
- (١٣٥) محىى الدين، عبدالرزاق (أبوحىان التوحدى ٢٣٣)
- (١٣٦) عباس، احسان (أبوحىان التوحدى ١١٩)
- (١٣٧) التوحدى، أبوحىان (الاشارات الالهىة ٣٤)
- (١٣٨) المصدر نفسه ١٤٠
- (١٣٩) المصدر نفسه ١١٥، ١١٣
- (١٤٠) المصدر نفسه ١١٤٠
- (١٤١) المصدر نفسه ١١٤
- (١٤٢) المصدر نفسه ١١٥٠
- (١٤٣) المصدر نفسه ١١٦
- (١٤٤) المصدر نفسه ١١٦
- (١٤٥) المصدر نفسه - المقدمة ١٦

- (٩٥) التوحدى، أبوحىان (أخلاق الوزىرىن ١٢١)
- (٩٦) المصدر نفسه ١٣٥
- (٩٧) المصدر نفسه ٣٩٤
- (٩٨) التوحدى، أبوحىان (الصدقة والصديق ٧٧)
- (٩٩) التوحدى، أبوحىان (الامتناع والموانسة ٤٢/١، ٥٢/١)
- (١٠٠) المصدر نفسه ٢٠/١
- (١٠١) عباس، احسان ٦٩، والحوافى، أحمد ٩٧، ومحىى الدين، عبدالرزاق ٢٨١ والأعسم، عبد الأمير دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٦ ص ٦٠
- (١٠٢) التوحدى، أبوحىان (الصدقة والصديق ١٩١)
- (١٠٣) المصدر نفسه ٨
- (١٠٤) ابراهىم، محمود (أبوحىان التوحدى فى قضايا الانسان واللغة والعلوم) ص ٤٧
- (١٠٥) مبارك، زكى، النشر الفنى ١٦٢/٢
- (١٠٦) ابراهىم، محمود (أبوحىان التوحدى ٤٧)
- (١٠٧) عباس، احسان (أبوحىان التوحدى) ص ٨٥
- (١٠٨) التوحدى، أبوحىان (الصدقة والصديق ١٠)
- (١٠٩) المصدر نفسه ١٠
- (١١٠) التوحدى، أبوحىان (الامتناع والموانسة ٢٠٥/١)
- (١١١) عباس، احسان (أبوحىان التوحدى ١٧)
- (١١٢) التوحدى، أبوحىان التوحدى (الصدقة والصديق ١٦١)
- (١١٣) الكىلانى، ابراهىم (أبوحىان التوحدى ٦٧)
- (١١٤) التوحدى، أبوحىان (الامتناع والموانسة ٤٣/١)
- (١١٥) المصدر نفسه ٤٤/١٠ - ٤٥
- (١١٦) المصدر نفسه ١٣٦/١
- (١١٧) المصدر نفسه ١٣٤/١
- (١١٨) عباس، احسان (أبوحىان التوحدى ٧٠)
- (١١٩) ياقوت الحموى (معجم الأدبا ٦٤/٢١٣)
- (١٢٠) المصدر نفسه ٢٠١/٦٠
- (١٢١) التوحدى، أبوحىان (الامتناع والموانسة

المصادر والمراجع

- الهوامل والشوامل ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥١م تحقيق أحمد أمين وسيد أحمد صقر .
- الشعالبي (أبو منصور عبد الملك بن إسماعيل) - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - دار الفكر - بيروت ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد
- ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم - مطبعة دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد ١٣٥٩هـ
- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين) - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - دار صادر بيروت ١٩٦٩م تحقيق إحسان عباس
- السبكي (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب) طبقات الشافعية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ ١٩٦٧م تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو .
- عباس إحسان ، أبو حيان التوحيدي - مطبعة جامعة الخرطوم ١٩٨٠م .
- كرد ، محمد ، أمراء البيان - دار الامانة - بيروت ١٩٦٩م
- الكيلاني ، إبراهيم ، أبو حيان التوحيدي - دار المعارف - بيروت ، مصر سلسلة نوابع الفكر العربي ١٩٥٧م .
- من كتاب الامتاع والمؤانسة ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي - دمشق ١٩٧٨م .
- مبارك ، زكي ، النشر الفني في القرن الرابع الهجري - دار الجيل - بيروت ١٩٧٥م .
- متز ، آدم ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
- إبراهيم ، محمود ، أبو حيان التوحيدي في قضايا الانسان واللغة والعلوم - دار المتحدة للنشر - بيروت ١٩٧٤م .
- ابن الاثير (عزالدين أبو الحسن علي بن محمد) الكامل في التاريخ . - دار صادر بيروت ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م .
- ابن الاثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) البداية والنهاية في التاريخ - مطبعة السعادة بمصر ١٣٥١هـ ١٩٣٢م .
- الأعم ، عبد الأمير أبو حيان التوحيدي في كتابه المقابسات . - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٦م
- البغدادي ، (أبو بكر أحمد بن علي) تاريخ بغداد - دار الكتاب العربي - بيروت (بدون تاريخ)
- ابن تغري بردي (النجيب الزاهرة في تاريخ ملوك مصر والقاهرة) - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة (بدون تاريخ) .
- التنوخي (أبو علي المحسن بن علي) - نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة - مطبعة صادر - بيروت ١٩١٧م .
- التوحيدي (أبو حيان علي بن محمد) - الاشارات الالهية ، وكالة المطبوعات الكويت ط ١ ١٩٨١م .
- أخلاق الوزيرين ، مطبوعات المجتمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٥م تحقيق محمد بن شاويع الطيحي .
- الامتاع والمؤانسة ، منشورات مكتبة الحياة - بيروت تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين (بدون تاريخ) .
- البصائر والذخائر ، دمشق ١٩٦٤م تحقيق إبراهيم الكيلاني .
- المداقة والصديق ، المطبعة النموذجية بمصر ١٩٧٢م تحقيق علي متولي صلاح .

- الهوامل والشوامل، تحقيق أحمد أمين
وسيد أحمد صقر، مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر ١٩٥١م.

- ابن النديم (أبو الفرج محمد بن أبي
يعقوب)

الفهرست، تحقيق رضا - تجدد طهران ١٣٩١هـ
١٩٧١م

- ياقوت (أبو عبد الله) معجم الأدباء
دار احياء التراث العربي - بيروت ١٩٢٢م
تحقيق أحمد فريد الرفاعي .

ترجمة محمد عبد الهادي أبو رييدة .
لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة
١٩٤١م .

- محيي الدين ، عبدالرزاق أبوحيسان
التوحيدي ، سيرته - آثاره

المؤسسة العربية للدراسات والنشر -
بيروت ١٩٧٩م

- مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد) تجارب
الأمم ، شركة التمدن الصناعية بمصر ١٣٣٣هـ
١٩١٥م .